

ولي أيتها المدينة أحوالي أيضاً*

عبد الكريم كاصد

١

كلّما مررتُ بكِ ازدددتُ يقيناً أن ما أراه لم يكن ماضياً، ولا حاضراً، حتى ولا طائفاً توهّمته، وهو ماضي، والحاضرُ البعيدُ الذي ما عرفتهُ أبداً، ولا تذكّرتُهُ، وهو يتشبهُ بماضي، وقد لا يكون الآتي غيرَ ما اختبرتُ من ماضٍ لم يكن ماضياً، وحاضرٍ لم يكن حاضراً، وأنا السائر بين الاثنين، أتطلّع ولا أنتظر، أتطلّع ولا أنظر، أتطلّع ولا أتطلّع أبداً

أبداً

٢

تلك حالي..

لا مدينتي اتسعتُ

ولا منفاي

والإقامة مُحال

والاستقامة مُحال

والمدينة ماضٍ لا يمضي، وحاضرٌ لا يزول

وحين تُقيمُ ولا تستقيم

تتعللُ بمنفاك

ويا طالما تعللت بالمدينة قبل
فلم تستقم ولم تُقِمْ
ولم
تلك حالي

٣

لكل دربٍ نفاذٍ*
فأين نفاذك؟
لكل نفاذٍ وصول*
فأين وصولك؟
لكل وصولٍ علمٌ*
فلماذا انتهيتُ إليكِ
بجهلي؟

*الأبيات المؤشر عليها هي في الأصل للنقري

٤

أيها الدرب
لماذا تضطربُ روعي كلما التقيتُك؟
أشواكُك تبتسم
لمن؟
وقد غادرَ من غادر
أيها الدربُ

الصغيرُ الهازئُ

المختبئُ هناك

لماذا ترمقني؟

٥

أراكِ فأقتنع أن ما حلّ لا مردّ له، وأنّ عليّ أن أحتملَ ما احتملتِ، وأحملَ ما حملتِ، وأعودَ إلى ما لا يذكّرني بك أبداً، وقد نسيتكِ دهرًا، فلماذا إذن حنيني إليكِ؟

وهجراني لكِ؟

وقسمي لشاهدٍ هو أنتِ

وغائبٍ هو أنتِ

وليس أنتِ..؟

٦

تسأليني عما استطعتُ ولم أفعل، وأسالكِ عما فعلتِ ولم تستطيعي، وأنا الخاسر لم أفعل ولم أستطع، وما انتظرتُهُ لم يكن غيرَ ما انتظرتِهِ أنتِ،

ذلك الطريق.. لم أصل.. ولم نصل

فكيف تكونُ الإشارة

وكيف يكونُ الطريق

وكيف نكونُ الإشارة والطريق معاً؟

ولم نبدأ الآن، ولم نبدأ قبل، ولن نبدأ بعد

كيف؟

ونحن على مفترقٍ

٧

أَبْعَدَ كُلَّ هَذِهِ السَّنِينَ
تَرْجِعِينَ إِلَيَّ؟
بِأَبْوَابِكَ الَّتِي أُتْهِبْتُ
وَجِدْرَانِكَ الَّتِي طُمِرْتُ
وَأَشْجَارِكَ الَّتِي أُقْتَلَعْتُ
.....
تلك الشجرة
الواقفة هناك
عند الزاوية اليمنى
من شارعِ المهجورِ الآن
أكانت يوماً؟

٨

كُلَّ مَرَّةٍ أَعُودُ لِأَمْحُو مَا أَنْذَرْتُ، فَلَا أَسْتَطِيعُ، أَقُولُ: هَا هُوَ الشَّارِعُ الَّذِي رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلِ، بِأَشْجَارِهِ
وَنَاسِهِ وَحَيْطَانِهِ، فَلِمَ إِذَا تَحَلَّ إِذْنُ أَيُّهَا الشَّارِعُ الْقَدِيمِ، فَلَا أَرَى غَيْرَ أَشْجَارِكَ وَنَاسِكَ وَحَيْطَانِكَ؟
تُرَانِي مَازَلْتُ هُنَاكَ؟
تُرَاكَ مَازَلْتُ هُنَا؟
تُرَانَا مَازَلْنَا...؟

٩

أَوْقَفْتَنِي الْمَدِينَةَ فِي سَاحَةِ
وَقَالَتْ:

"هذا تمثالك"

قلتُ لها:

"ولماذا التمثالُ أيتها المدينة؟"

لستِ بميدوزا

ولا أنا بذلك الحجر

لمماذا التمثال؟"

قالت المدينةُ مطرقةً:

"وهل أملكُ غيرَ الأحجار؟"

١٠

قالت المدينة:

كثيرون مرّوا

صيارفةً

سقّاحون

غزاةً

فرسانُ طواحين

مماليكُ

أعاجمُ شتّى

ولصوصٌ من أقصى الأرض

لصوصٌ من أدنى الأرض

لصوصٌ وطواغيثُ

كثيرون

ولكنُ

قل لي من أنت؟

١١

على رصيفٍ في صحراء، كنتُ أقف وسط حشدٍ من الناس بانتظار قطار، تدافع الناس إليه عند وصوله.

كان ثمة مكانٌ مظلمٌ يتسعُ لشخصٍ واحدٍ شبيهٍ بحفرةٍ أو كهفٍ...

ترددتُ فلم أخطُ باتجاهه. خشيتُ أن ينطلقَ القطارُ فأعلقُ بالأبواب.

كانت العرباتُ صامتةً، وليس سوى صوتٍ واحدٍ بعيدٍ يترددُ لرجلٍ لا أراه. أهو لسائق القطار؟

"اصعد!"

"اصعد!"

لم أعرفُ ما حلَّ بي وقد استيقظت

١٢

سكنتني وسكنتك،

ولم يكن أحدنا للآخر

خرجتُ فارغَ اليدين

وعدتُ فارغَ اليدين

وأنتِ لا ميزانٍ لأحتكمِ إليه

ولا زمانٍ لأنتسبِ إليه

كأنك المشهدُ وحدهُ خالياً من البشر

ولو حملتكِ لاسترحت

ولو هجرتكِ لاسترحت

وقد أهجرُ كلَّ شئٍ فأخرجُ خاوياً إلا منك

أَنْتِ الخِوَاءُ؟
والعودة التي لا عودة منها ولا خروج؟
أتشبث بك وأضحك،
أتبرأ وأبكي
وشتان ما بين ماضٍ وماضٍ نقتسمهما ونفترق

١٣

تواريتِ عني ثلاثين عاماً
تواريتُ عنكِ ثلاثين عاماً
نحاذرُ هذا السبيل
وذاك السبيل
ونسألُ: أيُّ السبيلين نسلك؟
هل أنتِ حتفي؟
وما خلف الغابرون إليك
وما خلفوه إليّ؟
تُرى ما الذي خلفوه إليّ؟
.....
ثلاثون عاماً
ومنفي

* من مجموعة معدة للطبع بعنوان (البصرة على مرمى حجر).